هوامش

يحضن المعرض القار للآلات الموسيقية في مركز الموسيقى العربية والمتوسطية بقصر النجمة الزهراء في تونس الكثير من الآلات الموسيقية القديمة المصنوعة يدوياً، ويسعى إلى إبرازها والحفاظ عليها

تتميّز تونس بعدّة أنماط موسيقية (العربي الجديد)

القمبري والشقاشق

متحف لتخليد الآلات الموسيقية في تونس

تونس ـ **مريم الناصري**

القمبري أو القنيبري أو الفكرون، والشقاشق التي تسمى أيضاً القرقبو واللوتر والشنة والدرابك والدف والطبل والحلوفة وغيرها، هي آلات ارتبطت بأنماط موسيقية تونسية عدة. لا يمكن أن تُقام حفلات السطمبالي من دون الشقاشق والدف والقمبري، ولا حفلات لعبيد غبنتن في الجنوب التونسي من دون الطبل والنقر على النغرات، ولا حفلات صوفية من دون البندير. وتتميّز تونس بعدّة أنماط موسيقية تُستعمل فيها أنواع مختلفة من الآلات الموسيقية الخاصة، والتي تختلف عن العديد من الآلات الموسيقية العربية الأخرى لناحية الشكل وطريقة الصنع والاستعمال.

وجمعت غالبية أنواع الآلات الموسيقية التونسية في أشهر معرض في البلاد منذ عام 1991، وهو المعرض القار للآلات الموسيقية في مركز الموسيقى العربية والمتوسطية بقصر النجمة الزهراء في سيدي بو سعيد بالعاصمة. ويجمع القصر بين أنشطة مختلفة، منها تنظيم الحفلات والندوات العلمية، والاهتمام بالتقاليد الموسيقية في تونس والوطن العربي. وبُني هذا القصر على يد بريطاني يسمى البارون ديرلانجي بين عامي 1912 و1922 في منطقة جبلية مرتفعة بسيدي بو سعيد. واستلهم البارون ديرلانجي المثال الهندسي للقصر من التراث المعماري التقليدي التونسي ما جعله لا يختلف عن بقية القصور القديمة في تونس خصوصاً قصور البايات، لناحية طريقة البناء والزخرفة والنقش على الجدران والأعمدة. وتمّ ترميم القصر من قبل الدولة التونسية عام 1989. كما يتمّ ترميمه باستمرار ليبقى من بين أشهر القصور في تونس.

وبعدما بات القصر متحفاً للزوار والسياح، خُصص في الجزء العلوي منه معرضٌ لتخليد أشهر وأقدم الآلات الموسيقية التونسية والعربية والأفريقية وحتى الأجنبية. وأعلن مركز الموسيقى العربية والمتوسطية بالقصر حصوله على منحة دولية قدرها 285 ألف دولار أميركي لغرض إعادة تأهيل مخازن متحف الآلات الموسيقية.

ويضمّ المعرض أكثر من خمسين آلة موسيقية، غالبيتها متداولة في تونس باختلاف أنماطها الموسيقية والجهات المتأتية منها، إلى جانب العديد من الآلات الموسيقية العربية والأفريقية والأجنبية. وتتوزّع الآلات الموسيقية بقصر النجمة الزهراء بحسب التقسيم الكلاسيكي لعائلات الآلات الموسيقية، أي وترية وآلات هوائيّة أو نفخيّة، وآلات إيقاعيّة أو نقريات. وتُعدّ هذه الآلات الموسيقية حصيلة عمل قام به مركز الموسيقى العربية والمتوسّطية منذ عام 1991. وجمعت غالبية تلك الآلات من جميع أنحاء البلاد. وتم التركيز على بعض الآلات الموسيقية التي تعود إلى أشهر الملحنين والعازفين التونسيين. كما ضمّ معرض العود الذي يعود إلى المغنية حبيبة مسيكة، والذي يفوق عمره المائة عام. خلال التجول في أروقة المعرض، تلحظ تلك الآلات وقد رتبت بحسب أنواعها، بين الآلات النقرية كما تُمسى وبين الإيقاعية والنفخية. وبعضها غريب الشكل، صنع من الخشب والجلد يدوياً، ويفوق عمر أغلبها المائة عام. وبحسب المشرف على المعرض، فإنّ غالبية الآلات الموسيقية هي آلات تونسية استخدمت سابقاً في الحفلات الشعبية، وقد اندثر بعضها في حين لا يزال بعضها يستخدم في الحفلات التونسية. وجمع أقدمها في هذا المعرض من جهات تونسية عدة، ولا سيما أنّ كلّ جهة في تونس تتميز بأنواع مختلفة من الآلات الشعبية التقليدية على غرار المزود والطبلة والدربوكة والشقاشق والقمري. كما أنّها تختلف بين جهة وأخرى في طريقة صنعها وتزويقها، ما جعلها قطعاً فريدة تستقطب الزوار من مختلف الجهات والبلدان الأجنبية، ولا سيما المهتمين بالموسيقى.

وأُشير إلى كلّ آلة بالتسمية التونسية التي تشتهر بها على غرار الشقاشق وتسمى القرقبو واللوتر والشنة والدرابك والدف والطبل، إضافة إلى القمبري أو القنيبري أو القوقاي الفكرون، وكلها تسميات لتلك الآلة الموسيقية التونسية. ويشير الباحث في الآلات الأفريقية زهير قوجة، إلى أنّها تعود إلى أصل تونسي أمازيغي. ويؤكد «غياب الجانب التوثيقي والأرشيفي في تونس، ليغيب الاختصاص ويغيب معه التنقيب والتحري عن أصل الأشياء حتى نصل إلى تقصي أسباب عدم رواجها في المشهد الفني الموسيقي اليوم». ما سبق جعل غالبية تلك الآلات المعروضة من دون هوية، أي من دون الإشارة إلى تاريخ ظهورها وأصلها وطريقة صنعها وغيرها من التفاصيل. ويهدف هذا المعرض إلى حماية الآلات الموسيقية القديمة والحفاظ عليها، وصيانة وإعادة تأهيل الآلات القديمة المتضررة على غرار القمري المصنوع من قوقعة السلحفاة. وهي آلة إيقاعية كانت تصنع من الخشب أو من قوقعة السلحفاة المتوسطة الحجم.

ورغم وجود عدّة حرفيين اليوم يتولون صناعة بعض الآلات الموسيقية على غرار العود والبنادر والطبل، لكنها لا تصنع بالطريقة التقليدية التي صنعت بها تلك الآلات الموسيقية القديمة. ويذكر الباحث في الموسيقى فتحي زغندة أنّ «الموسيقى التقليدية التونسية لا تزال تبحث عن حلول لإشكاليات تتعلّق بنقلها من جيل إلى جيل وبطرق عرضها، بما يساعد على ضمان استمرار تداولها ويجعلها أكثر وصولاً إلى قلوب الناس ووجدانهم باعتبارها تحمل إرثاً عريقاً ومنطلقاً لنهضتهم. وتتعرّض هذه الموسيقى كسائر الموسيقى المتداولة في الأقطار العربية الإسلامية، من مشارف بلاد الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً مروراً ببعض مناطق آسيا الوسطى، لصعوبة تدوينها؛ فهي في حاجة إلى نظام محكم يضمن الحفاظ على خصوصياتها اللحنية والإيقاعية، وهو عمل لا يمكن أن يقوم به شخص وحده مهما أوتي من علم، بل يفضل أن تتولّاه لجنة من الخبراء العرب والمستشرقين ممّن اهتمّوا بهذا المجال».

باختصار

أُشير إلى كلّ آلة بالتسمية التونسية التي تشتهر بها على غرار الشقاشق وتسمى القرقبو واللوتر والشنة والدرابك والدف والطبل، إضافة إلى القمبري أو القنيبري أو القوقاي الفكرون، وكلها تسميات لتلك الآلة الموسيقية التونسية

■■■

جمعت غالبية أنواع الآلات الموسيقية التونسية في أشهر معرض في البلاد منذ عام 1991، وهو المعرض القار للآلات الموسيقية في مركز الموسيقى العربية والمتوسطية بقصر النجمة الزهراء

وأخيراً

حين تضيق الرؤى وتتّسع العبارات

سعدية مفرح

«كلما اتّسعت الرؤية ضاقت العبارة».. قالها النفّري، وكأنّه يشير إلى تلك الحالة العميقة التي تصبح فيها التجارب الإنسانية أكبر من أن تحاصرها الكلمات.

حين يرى الإنسان أفقاً أوسع، وحين يتعمّق في فهمه الوجود والحياة، يجد أن اللغة تخونه؛ فالأشياء الأثمن في الحياة لا تُقال، بل تُحسّ، ولا تحتاج إلى صخب العبارات، بل إلى صمت التأمّل. لكننا اليوم، في زمن التواصل الاجتماعي، نعيش مفارقةً عجيبةً إذ ضاقت الرؤى واتّسعت العبارات، باتت الكلمات تسيل في الشاشات الصغيرة بلا توقّف، في حين تقلّصت مساحة التأمّل، وضاقت الأحلام، وذابت المعاني في زحام النصوص المتشابهة.

كان من المفترض أن تجعلنا هذه المنصّات أقرب إلى بعضنا بعضاً، أن تُفتح النوافذ على تجارب جديدة، وأن نرى العالم بعين أوسع وأرحب. لكن ما حدث أن الكلمات التي كان يُفترض بها أن تنقل المعنى صارت تُغرِق المعنى نفسه. صار التعبير غاية في حدّ ذاتها، لا وسيلةً لفهم أعمق. كلّ شيء يُختصَر في تدوينة، وكلّ شعور يُضغط في بضع كلمات، حتى صار الإنسان يُحاصر ذاته في قوالبَ لغويةٍ ضيّقةٍ تُجبره على السطحية، وتُقصيه من أعماق روحه.

في عصر السرعة، لم يعد هناك وقت للتأمّل أو للإصغاء الحقيقي. أصبحنا نكتب كي نُقال، ونتحدّث كي نُسمَع، لكنّنا نادراً ما نُفكّر أو نُصغي. تضخّمت العبارات حتى صار للكلام ضجيج لا ينقطع، لكن خلف هذا الضجيج يبدو المشهد فارغاً، وكأن الكلمات فقدت معناها. فحين تضيق الرؤى، يصبح من السهل أن نتحدّث عن كلّ شيء، لكن من دون أن نقول شيئاً. تتكرّر العبارات المُستهلَكة، ويُعاد تدوير الكلمات ذاتها في كلّ مرّة، حتى بتنا نشعر أن الأصوات التي نسمعها ليست إلّا صدى بعضها بعضاً، بلا أصالة أو تجدّد. هل تأمّلنا يوماً كمّ العبارات التي نقرأها يوميا من دون أن تترك أثراً فينا؟ آلاف الجمل تمرّ أمام أعيننا، لكنّ القليل منها يلامس أعماقنا. إنه زمن التغريدات السريعة، إذ تُختصَر الفكرة في 280 حرفاً، وتُلخَّص المشاعر في رموز ووجوه مبتسمة، وكأنّنا نحاول أن نضغط الحياة بأكملها في قالب صغير ومحدّد. لكنّ الحقيقة أن المعاني الكبيرة لا تُختصَر، والمشاعر العميقة لا تُحاصَر. إننا بحاجة إلى الصمت أحياناً كي نستعيد رؤيتنا، إلى التأمّل كي نفهم، وإلى أن نعيد اكتشاف متعة أن تكون الكلمات قليلةً لكن ذات مغزى.

تضيق الرؤى حين نتوقّف عن طرح الأسئلة، وحين نسمح للضجيج بأن يعمينا عن حقائقَ أبسط وأعمق. نكتب عن السعادة ونحن في الداخل فارغون، نتحدّث عن الحُبّ وكأنّه حدث عابر، بينما قلوبنا قد نسيت كيف تنبض به في صمت عميق. نكتب عن الصداقة، لكن علاقاتنا أصبحت هشّةً، تُختصَر في تفاعل إلكتروني أو «إعجاب» عابر. نُفرط في استخدام الكلمات الكبيرة مثل «الحلم» و«الأمل»، لكنّ أحلامنا باتت صغيرةً، مؤقّتةً، ومحدودةً بآخر منشور نال إعجاب الآخرين. إنّا نعيش في زمن تغرق فيه التفاصيل في بحر من العبارات الجوفاء، حيث لا نجد وقتاً لنغوص في أعماق أنفسنا بعيداً من ضوضاء المنصّات.

وفي هذا الزحام، نتعلّم كيف نُجاري التيّار، وكيف نحشد الكلمات لإبراز وجودنا، لأن الغياب عن المشهد الرقمي صار يعني العزلة عن العالم. لكن، هل نتساءل يوماً: ماذا لو أن الصمت هو ما نحتاجه حقّاً؟ ماذا لو أن المعاني التي نبحث عنها لا توجد في الكلمات، بل في المساحات التي تفصل بين الكلمات؟ لقد نسينا أن أجمل المشاعر تُحسّ، لا تُقال، وأن التجارب الأعمق هي تلك التي لا يمكن اختصارها في جملة جاهزة.

> الكلمات التي تأتي بعد تأمّل طويل تحمل في طيّاتها نوراً لا تحمله العبارات المُستعجِلة

عندما تضيق الرؤية، يصبح الإنسان أسير نظرة سطحية للعالم، فلا يرى إلّا ما هو ظاهر، ولا يتفاعل إلّا مع ما هو مباشر. تختفي التفاصيل الجميلة التي تحتاج إلى صبر وملاحظة، ونفقد القدرةَ على إدراك جمال اللحظات الصغيرة التي تمرّ في صمت. أمّا الكلمات، فقد اتّسعت وتمدّدت حتى باتت تُستخدَم من دون حساب، تُنثَر بلا وعي، وتفقد قيمتها مع كلّ مرّة تُقال فيها بلا إحساس حقيقي.

لكنّنا نحتاج إلى أن نتوقّف للحظة لنسأل أنفسنا: ماذا تعني الكلمات حقّاً إذا لم تكن تعبّر عن رؤية صادقة؟ ما فائدة العبارات إن لم تكن نابعةً من تجربة عميقة أو إحساس حقيقي؟ لعلّ العودة إلى الصمت أحياناً هي ما يمنح الكلمات معناها من جديد. فالكلمات التي تأتي بعد تأمّل طويل تحمل في طياتها نوراً لا تحمله العبارات المُستعجِلة. نحن في حاجة إلى أن نُعيد اكتشاف قيمة «قلّة الكلام». أن نُقلّل من الضجيج حولنا، لنستمع إلى أصواتنا الداخلية، إلى تلك اللحظات التي لا تحتاج إلى جمهور أو تصفيق، لنكتشف أن المعادلة التي تحدّث عنها النفّري لا تزال صحيحةً رغم كلّ شيء. كلّما وسّعنا رؤيتنا للعالم، ضاقت حاجتنا إلى الكلام. وحين نتعلّم أن نعيش الحياة بعمق، سنتحدّث أقلّ، لكن كلّ كلمة ستصبح أثمن، لأن ما يعبّر عنها هو روح متأمّلة، لا مُجرَّد أصابع تنقر بلا توقّف على شاشة زجاجية.

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالاً**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,20**, Austria **€ 2,20**, Belgium **€ 2,20**, France **€ 2,20**, Germany **€ 2,30**, Holland **€ 2,30**, Italy **€ 2,10**, Spain **€ 2,20**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 5,00**, USA **$ 2,00**